سيارة أجرة

اليوم آخر أيام الشهر، انتظرته بفارغ الصبر، ضقت ذرعاً بكل الأيام التي كانت قبله، مرَّت عليَّ طويلة.. كئيبة.. خانقة، لم أنم الليلة وأنا أنتظره، ليت كل الأيام آخر الشهر، ليت كل يوم ينتهي بشهر، حتى لو صار عمري مئات من السنين، ليست بسنوات قمرية، ولا سنوات شمسية، ولا سنوات ضوئية، وإنما هي سنوات راتبية.. تهكَّمت في أعماقي.. مصطلح جديد.. سنوات راتبية.. إنه مصطلح موظف الألفية الثانية عندنا، أستحقُّ على هذا المصطلح براءة اختراع.. في عصر بات فيه المواطن يزور الكواكب في جولة سياحية، ويبتاع طاقة ورد فرنسية من أي بقعة كان فيها من العالم ليهديها لحبيبته، ويشتري مستلزمات منزله وهو جالس وراء شاشة حاسوبية رقيقة تجوِّله عبر المجمَّعات التجارية، وأنا قابع هنا.. في منزلي.. منطوٍ على أعماقي، في حالة حذر وتربُّص دائمين أن يطلب أحدهم مني ليرة واحدة، أكره الشمس التي تفضح فقري، وأكره القمر الذي يطيل سهدي، أكره

obeikandi.com

نفسي لأنني مصدر تعاسة زوجتي وأولادي، وأنا أنظر إلى غيري.. إلى من هو خارج إطاري.. فأجده يسبقني بسنين راتبية وضوئية لا منتهية، ولو عشت عمري قدر الذي عاشه عُزير، وقدر الذي عاشه أهل الكهف، بل قدر الذي عاشه نوح عليه السلام، لن يصل أحدهم إلى شمسي.. ولا إلى قمري.!

نهضت زوجتي.. رفعت رأسها والنوم مصبوغ على وجهها، كنت أرتدي ثيابي، قالت وهي تتثاءب :

لا تنسَ أن تحضر مستلزمات المنزل التي كتبتها لك، الثلّاجة فارغة وطفلنا أحمد نفد حليبه، وتهاني يلزمها...

قاطعتها بضجر : أعلم.. أعلم.. نخرت رأسي من الصباح الباكر بمقطوعتك اليومية.

كظمت غيظي وأنا أكاد أنفجر، هرب خدر النوم منها.. كظمت غيظها وهي تكاد تنفجر، ترى.. على من الحق..؟ ومع من الحق..؟ ولمَ توصلنا الحياة إلى طرق مسدودة من التواصل..؟ لمَ تقطع علينا رحابة صدرنا، وغيرنا يرتع في بحور من الرفاهية وسكينة النفس، ومن ثم يرانا في مستوى أدنى من الشفافية والرقي الذي يسبح به العالم الطبقي الأعلى..؟

تساؤلات ضيّقت الحبل حول عنقي وأنا أمدّ يدي إلى

جيبي لأطمئنّ على مواصلاتي، أخرجت من جيبي خمس عشرة ليرة، وأنا أبحث عن الخمس عشرة الأخرى، من المفترض أن يكون معي ثلاثون ليرة، هي فتات ما بقي من راتبي المسكين، ومن المفترض أن يكفيني ذهاباً وإياباً على افتراض ألا أجد المعتمد الذي سيصرف لي الراتب، بحثت في جميع جيوب بنطالي وسترتي، ثم سألت زوجتي ولا صبر عندي أحتسيه..

- هل مدّ أحدكم يده إلى جيبي..؟

قالت مستنكرة : لا أظن..! صمتت قليلاً ثم قالت : هل عساه يكون فهد..؟

قاطعتها مغتاظاً : وكيف يأخذ نقوداً من غير إذني..؟

قالت متعجبة : كل الذي أخذه خمس عشرة ليرة ليشتري دفتراً..؟ لمَ هذا الغضب منذ الصباح الباكر..؟

نظرت إليها محدّقاً، فأنا أشتهي أن أفرغ جام غضبي في وجهها دفعةً واحدة، قلت لها :

وكأنك يا أحلام تعيشين في كوكب آخر، ألست معي تحت سقف واحد..؟ ألا تعلمين ماذا يعني آخر الشهر بالنسبة إلي..!

تأمّلتني بأسى وضعني في قفص اتهام، قالت بهدوء وألم: لأنني أعلم أحتمل غضبك.

تمزّقت نياط قلبي، خرجت من المنزل لا ألوي على شيء، الأطفال لا يمرضون إلا في أواخر الشهر، أعطال المنزل لا تنطق إلا في أواخر الشهر، بطاقة الجوال لا تنتهي إلا في أواخر الشهر، تباً لأواخر الشهر..!

أمامي أحد خيارين.. إما أن أمضي طريقي في الذهاب سيراً على الأقدام لأوفّر أجرة الإياب إن لم أقبض راتبي، وإما أن أركب المواصلات ذهاباً وأرجع بخفي حنين في الإياب إن لم أقبض الراتب، وفي كلتا الحالتين سأرجع إلى المنزل وليس في جيبي ليرة واحدة، ما الفرق بين الخيارين..؟ ما دام الألم واحداً.. والأسى واحداً..؟!

بعد شقاء أيام ثلاثين مع المراجعين والمواطنين وأنا أعيش شرف المواطنة، ونزاهة المواطنة، وعفّة المواطنة، في كل شهر، يأتي الوطن ويسحقني بهويتي وأنا أستجديه عطفاً.. ليتك تحبني كما أحبك..! ليتك تحرص عليّ كما أحرص عليك..! ليتك تخشى فسادي كما أخشى فسادك..!

ماذا يعني أن أذهب الآن وأنا أحتمل في كل خطوة أمشيها أن أضمّخها باليأس..؟

ماذا يعني أن أصل وقد وجدت أن المعتمد لن يأتي إلا بعد ساعتين أو ثلاث وأنا في انتظار مرير مع ثلّة كتبَ عليها الشقاء مثلي..؟ ماذا يعني أن أذهب لأجد

المعتمد يستقبلنا بالسآمة وهو يقول : لم يصرف لي المصرف النقود بعد.. تعالوا غداً، هو لا يعلم أن بيتي يبعد عن موقعه كيلو متراً كاملاً، هو لا يعلم أنني لا أملك في جيبي إلا خمس عشرة ليرة، هو لا يعلم أنني لا أملك هاتفاً أرضياً، هو لا يعلم أن جوّالي بغير وحدات فلا أستطيع الاتصال به..؟

ماذا يعني كل هذا ونحن على ذات أرضنا، وفي ذات مدينتنا هناك من يزيح عن صدره هماً عندما يفرّغ خزانته ممّا عجّ فيها من ملابس باتت في نظره قديمة، وهناك من ترتاح وتتنفّس الصّعداء عندما تجد من يخلّصها من مطعومات عديدة امتلأت بها ثلاجتها دونما استهلاك، بل وتشعر داخلها بالمنّة أن أطعمت بها مسكيناً..؟

هناك من يحمل همّ تغيير جوّاله وتحديثه.. وحاسوبه المحمول.. وسيارته.. هناك من يحمل همّ تغيير قصّة شعره..؟! الكلّ يحمل همّاً..!.. الكل مهموم..!.. الكلّ يتطلع إلى هدف..!!

تقاذفتني الخواطر وأنا كالكرة تركلني في رأسي، حتى تصدّعت ولم أجد نفسي إلا وأنا أمام دائرة المحاسبة حيث يهبط رزقنا نحن موظفي التربية فاقداً إحساسي بقدميّ اللتين حملتاني كل هذه المسافة، فشدّة الألم تخدّر الحسَّ والعصب، لكن.. لمَ لمْ يتخدَّر إحساسي بالفقر حتى الآن..؟!

صعدت الدرج وأنا أشعر بكل درجة تقذف بقلبي إلى الدرجة الأخرى.. لمحت المعتمد عن بعد، وددت لو أهوي فوقه كما يهوي الظمآن فوق قيعة من الماء، هو في موقف لا يحسد عليه، وضعوه في وجه المدفع ليستقبل بؤس الوجوه، وقسوة الأيام، ولتمدّ له الأيدي باستمرار، مشيت إليه مهرولاً، كانت ابتسامته عريضة على غير العادة وهو يعدُّ الأوراق النقدية للموظفين، تنهّدت عميقاً.. تنفّست الصعداء.. وصل الراتب.

قلت له مازحاً : ما أحلى الصباحات على ابتسامتك يا أبا خالد..!

ردّ مبتهجاً : تقصد ما أحلى الصباحات على زيادة الرواتب يا أبا فهد..!

رفعت حاجبي العريضين.. تراقصت مسام وجهي.. قلت ضاحكاً: فعلوها أخيراً..!

خرجت من عنده وأنا أحتضن مولودي الجديد والذي زاد في وزنه عن إخوته السابقين، ففي كل شهر أعيش حالة مخاض وحالة ولادة ثم حالة مأتم.

كنت سعيداً للغاية.. إعلاناً لفرحتي بزيادة الراتب كان لابد أن أكسر القاعدة وأركب سيارة أجرة لأريح قدميّ من عناء الطريق الذي اجتزته صباحاً..

الشمس تسطع على الوجوه بكل حيوية.. والسماء صافية من كل كدر..

obeikandl.com

أحبك يا راتبي، أحبك يا زوجتي، أحبك يا وطني، أشعر أنني أملك القدرة على مسامحة العالم بأسره، وأملك القدرة على حب العالم بأسره، أيعقل أن المال يجلب الحب..؟ ليس عليّ أن أحسبها هكذا.. وإنما هي تحقيق الهدف..؟ وهل هذا يعني أن آخر الشهر هو الهدف..؟!

لن أفكر بشيء الآن، سأوقف سيارة أجرة وأتنعّم بالراحة وأدلّل نفسي..

ما لبثت أن وقفت لي سيارة، ما إن فتحت بابها حتى قال لي السائق حانقاً ومشترطاً :

زيادة على العداد خمس عشرة ليرة، ألم يزيدوا لكم الراتب..؟ ونحن.. ما قيمتنا.. قشرة بصلة ؟!!

obeikandi.com